

مسؤولية التكافل في المجتمع



«الفقر حالة عامّة في مدى التاريخ، حتى الدول الأكثر تقدّمًا، تجد فيها أحياء تعيش فقراً مدقعاً، كما أنّنا نجد أنّ العولمة خلقت لنا في البلد الواحد مجالات في أعلى درجات الحداثة، تفصلها أسوار الفقراء، والذين ربّما لا يجدون قوت يومهم.

وفي الدول التي تغيب فيها الدولة، أو ينتشر فيها الفساد، وتتحوّل مقدّراتها إلى فئة قليلة من المستأثرين، ولا ينالُ الناس منها إلاّ على سبيل الرشى التي تمنّى بها الزعامات على جماعاتها في أزمنة شراء الأصوات والذمم، يتحتّم علينا التفكير جدّياً في حلول تنبع من رحم التكافل الاجتماعي الذي يعمل على أن يقلع المجتمع شوكة بأطافره بما يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

ونحن في هذه العجالة، نريد أن نطرح بعض النقاط

أولاً: التكافل العائلي

في كلّ عائلة ميسورون أو أغنياء، وهؤلاء يجب أن يلحظوا فقراء العائلة واحتياجاتهم الأساسية، انطلاقاً من لُحمة القرابة، فلا يجوز أن يأكل أحدُهم وأخوه جائع، ولا أن يتعلّم أبناؤه وأبناء أقربائه لا يجدون الحدّ الأدنى من أقساط التعليم...

قد لا يستطيع فردٌ أن يقوم بكلّ ذلك، ولكنّ ميسوري كلّ عائلة، لو أنشأوا صندوقاً، وكلّ وضع فيه على قدر ما يطيق، لكفى ذلك حاجاتها ولفاض؛ لأنّ الإنسان عادةً ينظر إلى حجم المشكلة قياساً بوضعه، ولا نفكّر بطريقة تكافلية جماعية، والله تعالى يقول: (وَأُولَئِكَ أَلَارْوَاحُ بِعَمَلِهِمْ أَوْلَىٰ بَرِّعَمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ)، وهذه الآية وإن وردت في باب الإرث، لكنّها تشير إلى مبدأ عامّ يشمل كلّ المجالات.

لو أخذنا مبنىً سكنياً منطلقاً للتفكير في الآتي: أليس في إمكان كل مبنى أن يقوم بمبادرات بسيطة تخفف عن الفقراء الذين قد يلتقي الإنسان بهم، وهو خارج من بيته أو عائد إليه؟

بدلاً من رمي الكثير من الطعام، فإن من الممكن جمعه وإيصاله إلى فقراء المبنى أو الحي بطريقة لائقة وبسيطة أيضاً. في بعض الروايات عن الإمام الرضا (ع)، أن أحدهم قال له: أكل الغلمان يوماً فاكهةً، فلم يستقموا أكلها ورموا بها، فقال الإمام (ع): «سبحان الله! إن كنتم استغنيتم، فإن ناساً لم يستغنوا. أطعموه من يحتاج إليه». وقد ورد في وصية الإمام علي (ع) لمّا ضربه ابن ملجم: «إني في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، مازال يوصي بهم حتى طننا أنه سيورثهم».

ثالثاً: كبح جماح الجشع

في ظل غياب الدولة، عادةً ما يلجأ الناس إلى استغلال حاجات بعضهم البعض، ولذلك يثرى في أزمنة الفساد والحروب كثيرون من أبناء الشعب الفقير نفسه، ممّن أمّنت لهم الظروف بعض الفرص، وينسى هؤلاء أنّهم انطلقوا من رحم المعاناة، فيبخلون، بل قد ينطلق بعضهم ليمارس الجور والبغي على الفقراء بأقصى ممّا يمارسه الفاسدون في الدولة.

لو أخذنا مثلاً الكهرباء، لا للإدانة، بل للتفكير الموضوعي، كم هي التكلفة الحقيقية للاشتراك الأدنى في الكهرباء (من ضمنها أكلاف الاستهلاك والصيانة والطوارئ)، ونضيف إليها النسبة المعقولة للربح؟ فكم تصبح؟ هل هذه النسبة هي ما يجري بيعه للمواطنين اليوم من أبناء جلدتهم؟ أنا لا خبرة لي في ذلك، ولكن أليس الجميع يتحدث عن جشع وإثراء سريع، وكثيرون من الناس يستوعب اشتراك الكهرباء ثلث معاشهم الشهري أو نصفه!

يحتاج المجتمع هنا إلى رحمة!

يحتاج إلى تفكير حديثي الذّعمة بعائدة الأيتام التي يمكن أن تصيب أولادهم. ماذا قال رسول الله (ص)؟

قال (ص): «تحدّثوا على أيتام الناس يُتحدّثن على أيتامكم»، فإذا لم تنشروا الرحمة وتحولوها إلى سبيل للتعاطي مع بعضكم البعض، فإنّ أبناءكم لن يجدوا في هذا المجال من يتحدّث عليهم!

كيف صوّر الله لنا مشكلة قارون - الذي نتبرأ منه ونلعنه، وقد نفعل فعله -؟

قال الله تعالى: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُذِرُ بِالْعِصْيَانِ أُولِي الْقُلُوبِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّكَ لَا يُوْجِبُ الْفِرَارَ * وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ نَحْشِبُكَ مِنَ الدَّٰنِيَّاتِ وَأَخْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّكَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّهُمَا أُوتِيَتُهُمَا عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَلِآيَاتِ لَنَا مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقِ أَهْلًا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ

تَمَنِّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَنَّ اللَّيْلَ يَدْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنْ إِيَّاهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَآزِّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (القصص/ 76 - 82).

وأخيراً، نختم بكلمات نفتتها نفسُ أمير المؤمنين عليٍّ (ع) في زمانه، وما أشبه اليوم بالبارحة!

يقول (ع): «اضربْ بطَرْفِكَ حيثُ شئتَ من الناسِ، فهل تُبصِرُ إِلَّا فقيراً يُكابدُ فَقَراً، أو غنياً بدَّالٍ نِعْمَةٍ إِيَّاهُ كُفْراً، أو بخيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ حَقّاً إِيَّاهُ وَفُوراً، أو مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بَأْذُنَهُ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقَراً! أينَ خِيَارُكُمْ وَصُلْحَاؤُكُمْ؟! وأينَ أَجْرَارُكُمْ وَسُحَاؤُكُمْ؟! وأينَ الْمُتَوَرَّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ؟! أليسَ قد طَاعَنُوا (ارتحلوا) جميعاً عن هذه الدُّنْيَا الدُّنْيَةِ، والعاجلةِ الْمُتَغَصِّصَةِ، وهل خُلِّصَتْكُمْ إِلَّا فِي دُنْيَا لَا تَلْتَقِي بِذِمَّتِهِمُ الشَّفَاقَانِ، استصغاراً لِقَدَرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ؟! فـ(إِنَّمَا إِيَّاهُ وَإِنَّمَا إِلَهُ رَاجِعُونَ)، (طهر الفسادُ) فلا مُنْكَرَ مُغَيَّرٍ، ولا زَاجِرَ مُزْدَجَرٍ. أفبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا إِيَّاهُ فِي دَارِ قُدْسِهِ وَتَكُونُوا أَغْزَى أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هيهاتَ! لَا يُخْدَعُ إِيَّاهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنْزَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ إِيَّاهُ الْأَمْرَيْنِ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ».

وبكلمات وجَّه بها الإمام الباقر (ع) مواليه. يقول الراوي، واسمه خيثمة: دخلتُ على أبي جعفر (ع) أودِّعُه، فقال: «يا خيثمة! أبلغ مَنْ ترى من موالينا السلام، وأوصِهِمْ بِتَقْوَى إِيَّاهِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ يَعُودَ غَنِيَّهِمْ عَلَى فَقِيرِهِمْ، وَقَوِيَّهِمْ عَلَى ضَعِيفِهِمْ، وَأَنْ يَشْهَدَ حَيْثُ هُمْ جَنَازَةَ مَيِّتِهِمْ، وَأَنْ يَتَلَقَّوْا فِي بَيْتِهِمْ؛ فَإِنَّ لِقَا بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَيَاةٌ لَأَمْرِنَا. رَحِمَ إِيَّاهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا».